المدارس الفكرية الدينية اليهودية

الأستاذة خلود مصطفى❖

مر اليهود كشعب بتحولات كثيرة وعاشوا ظروفاً مختلفة تركت جميعاً أثرها على تشكيل مدارسهم وتياراتهم الفكرية وبالتالي رؤية هذه المدارس والتيارات إلى الدين وعناصره الأساسية. ومن أهم الأحداث التاريخية التي تركت أثرها في نشوء المدارس الفكرية اليهودية تجربة السبي البابلي وما لحقه من اختلاط بالشعوب والثقافات وأهمها الثقافة اليونانية. وقد أدى ذلك إلى ظهور مدارس أو جماعات دينية منها: الفريسيون، الصدوقيون، الآسينيون، البصريون، رهبان قمران، الحماسيون، السامريون، النذريون. ولكل من هذه الجماعات رؤاها الخاصة التي تميزها عن غيرها، الأمر الذي تحاول الباحثة خلود مصطفى استعراضه وشرحه على مدى صفحات مقالتها هذه.

❖ باحثة بالقسم العبري في أكاديمية الدلتا للعلوم والآداب، المنصورة، مصر، حاصلة على الماجستير في الأدب العبري.

لم تشمل الشعب الإسرائيلي خلال نضاله لنيل استقلاله وحدة فكرة، سواء كان ذلك في العهد السلوقي أو العهد المكابي، وتبع هذا التباين الفكري تَفرُّق في الآراء الدينية والسياسية، ولذا اختلفت تصرفاتهم ومواقفهم إزاء الحروب والأحداث التي كانت تلمّ بهم؛ فبين حين وآخر كانت تظهر بينهم فِرَق جديدة، وكثرت هذه الفِرَق حتى بلغت نحو أربع وعشرين فرقةً، منها القديم والحديث، والكبير والصغير، والمثابر المقاوم والواني المستسلم.

ولا يمكن درس التاريخ الإسرائيلي ولا درس الجوانب الدينية اليهودية، بل ولا درس المسيحية إلا بدرس هذه الفرق، أو على الأقل الإلمام بأهمها، وهذا ما نكتفي به هنا وترجع أسباب هذا التمزق إلى عوامل كثيرة[1]..

منها: أنّ هذا الشعب منذ السبي البابلي وبعد اختلاطه بالشعوب الأخرى تغذّى أفراده وقبائله بأفكار أجنبية، كل بحسب استعداده وظروفه.

ومنها: أنّ الثقافة اليونانية ـ هلينيّةً وهلينستيّةً ـ غزت المنطقة منذ عهد الإسكندر، ولم تكن خاليةً نهائيّاً منها قبله، وتأثر بها اليهود بدرجات مختلفة.

ومنها: أنهم في فترات كثيرة كانوا يخضعون للأمم المجاورة ويحاكونها في الطقوس والعقائد، وأسفار العهد القديم تغص بالشكوى من هذه الانحرافات.

وقد ظلت هذه البقعة حقبةً طويلةً من الزمن مسرحاً لأحداث متتالية، وتوالى عليها حكّام من المصريين والبابليين والفرس والحيثيين واليونان والرومان، وكل حقبة من هذا التاريخ وكل لون من ألوان الحكم والديانات تركت بين سكان الأقاليم أثراً ما، فلا عجب بعد ذلك كله أن تنشأ أفكار متطرفة وأخرى متخلفة، وأن يقف آخرون بين بين، وهذا ما أوجد التباين البعيد الواسع في موقف الشعب اليهودي عند قيام الثورة المكابية؛ إذ كان هناك المتحمِّسون والمشجعون والقاعدون عن الحرب، ولا يرجع ذلك إلى الأسباب السياسية وحدها؛ بل إلى الأسباب الدينية أكثر[2].

وسوف نحاول في هذه المقالة ذكر بعض الفِرَق؛ لِتجميع المعلومات التي جاءت متفرقة.

١ - الفريسيون

ليست هذه الفرقة أقدم الفِرَق، ولكنها أهمها وأكثرها عدداً وأبقاها أمداً. نشأت في عهد المملكة اليهودية الثانية، أو كما يعبِّرون عنها دائماً «الكومونويلث الثانية»؛ لأنها لم تكن مملكةً حقيقيّةً. وأصل هذه الفرقة غامض[3]، واسمها قد يكون مأخوذاً من الفرز، بمعنى الاختيار والتنقية، أو من «بروشيم» بمعنى المنفصلين أو المعتزلين؛ لأنهم فصلوا أنفسهم عن عادات الوثنيين أو عن عوامّ الشعب.

وأهم ما امتازت به هذه الجماعة هو: تمسّكها بالتوراة، وإصرارها الدائم على أن تكون دستور الدولة، ولهذا السبب حرّموا الحرب التوسعية عملاً بما جاء في سفر التثنية، وهم مع هذه النزعة لم ينحازوا عن الدنيا ولم ينسحبوا عن تيارها نهائيّاً كما فعلت فِرَق أخرى.

وكما يؤمنون بالتوراة ويقدِّسونها أيضاً يقدِّسون التفسيرات الشفوية التي جاءت عن الشرَّاح، ولهذا كان للربانيين بوصفهم مفسِّرين للتوراة مكانة خاصة عندهم، ومن هذا المنحى كان ارتباطهم بالحياة وكان لهم شعبية واسعة.

وأخذهم بالتفسيرات الشفوية يرجع إلى عهد عزرا؛ حيث كان الشرَّاح يصحبون قرَّاء النصوص، وقد كانوا هم والصدّوقيون أكبر الفِرَق وأبرزها، ولكن الفريسيين كانوا أكثر عدداً.

وبعد أن حطم القائد «تيطس» الهيكل (سنة ٧٠م.) ذابت الفِرَق اليهودية كلها ما عدا هذه الجماعة، وفي الواقع لم تعد بعد هذا الحادث فرقةً؛ لأنها شملت اليهود جميعاً.

ويختلف الفريسّيون عن الصدوقيين في مواقف كثيرة من سياستهم الدينية وفي عقيدتهم؛ فهم يؤمنون بالبعث بعد الموت وبالجزاء، ويلائمون بين القدر وحرية الإرادة، ويؤمنون بهما معاً، ولا يجعلون «يهوه» إله الإسرائيليين وحدهم؛ بل يرونه إله الكون كله، وهذه كلها مما لا يؤمن به الصدوقيون، وهم يعتقدون أنّ التفسيرات والتشريعات الشفوية مما أوحاه الله إلى موسى عليه السلام.

وفي عهد السيد المسيح عليه السلام كان الفريسيون والصدوقيون والكتبة من أكبر معارضيه وأشد أعدائه كيداً له، ونجدهم يدبّرون له المكائد لتوريطه وتعجيزه، وأحياناً لإثارة الخلاف بينه وبين الحاكم الروماني؛ إذ يسألونه: هل يجوز دفع الجزية لقيصر أو لا يجوز؟[٤].

وهم والكتبة معهم يعترضون عليه أكل تلاميذه من غير أن يغسلوا أيديهم[٥].

ما يدل على تمسكهم بحرفية النصوص، ومع هذا لهم مواقف - خصوصاً في عهد المسيح - يبدو فيها الزيف الديني والتظاهر بغير ما هم عليه، وعلى عكس ما جاء في دائرة المعارف البريطانية: هم ورثة الأتقياء، وليسوا جماعةً منفصلةً أخذت شيئاً منهم.

وفي عهد «هيرود» نالت هذه الجماعة تقدّماً واكتسبت أنصاراً وأتباعاً أكثر، ولكنها بحرفيتها الدينية أحدثت فجوةً وانعزالاً بين شؤون الدين وشؤون الدنيا، واشتد كل من الجانبين في تقوية مذهبه في المجلس الأعلى، ما أكسبهما معاً تقدماً وعمقاً في الدراسة.

وقد كانت ثورتهم الأولى ثورةً على البدع الأجنبية التي كانوا يرفضونها كل

الرفض ولا يسامحون من يقبلها. فلمّا أمر الملك «أنطيوخس» كاهن الهيكل أن يضحي في مذبحه بالخنازير (سنة ١٦٨ قبل الميلاد)، قاموا قيامة رجل واحد وعرّضوا أنفسهم للموت بالمئات والألوف كراهةً لهذه البدعة النجسة.

وحدث في عهد الرومان أنّ الوالي «بترونيوس» عجب من عنادهم في مقاومة الدولة الرومانية مع ضعفهم وقوتها، فسأل زعماءهم: «كيف يخطر لكم أن تحاربوا قيصر ولستم أكفاء لربه ؟!» فقالوا: «نحن لا نحارب قيصر ولا نزعم أننا أكفاء لقوته، ولكننا نموت على بكرة أبينا ولا نخالف الشريعة»، وكشفوا رقابهم مستعدين لإثبات ما يقولون.

ومن نقائضهم أنّ ثورتهم على استبداد الهيكل ورغبتهم في تعميم الشعائر التي كانت محصورةً في المحاريب هي التي دعتهم إلى إقامة هذه الشعائر في البيوت من غير حاجة إلى الكهّان المرسومين، ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا من كل بيت هيكلاً مقدّس المراسم! فكانوا على ميلهم إلى السماحة ومقاومة الاستبداد «الرسمي» أشد من المتشددين. إلا أنّ الغالب عليهم حين يبتعدون عن الأمور التي تتعرض لهذه النقائض أنهم أقرب إلى التصرف والقياس أو أقرب إلى تحكيم العقل في مسائل النصوص والتقاليد.

فكان الصدوقيون - مثلاً - يصرّون على شريعة العين بالعين والسن بالسن ولا يقبلون الدية، وكان الفريسيون على عكس ذلك يفضلون الدية والمسامحة على القصاص.

وكان الصدوقيون أقرب إلى المادية والقواعد العملية، وكانوا هم أقرب إلى الروحانية والآداب النظرية أو آداب التأمل والتفكير. وقد كان إنكار البعث والحياة الروحية أشد ما ينكرونه على خصومهم الصدوقيين، ومن أجل هذا سبقوهم مراحل إلى انتظار الخلاص أو انتظار المسيح المخلِّص في عالَم الروح، غير مقيّد بشروط الصولة والصولجان.

وإذا وُصِف الصدوقيون على الإجمال بأنهم طبقة «الأرستقراطيين» فالذين يستحقون وصف «الديموقراطيين» دون غيرهم من طوائف اليهود في ذلك العصر هم الفريسيون.

وقد جاء عصر الميلاد وهم ينقسمون على فريقين: فريق منهما يتبع الحكيم «هلل» الذي قدم إلى فلسطين من بابل، وهو الفريق السمح الودود في معاملة الأجانب، والفريق الآخَر يتبع الحكيم «شماي»، وهو أقرب إلى التحريج والتضييق وردّ الراغبين في دخول الدين من غير اليهود.

وكان شعار «هلل» الاعتدال بين الزهد والمتاع، وكلمته المأثورة «إنّ الزيادة في اللحم زيادة في الدود»، وشريعته في المعاملة أنّ الشريعة كلها كلمة واحدة، وهي: ألاّ تصيب أحداً بما تكره أن تصاب به، وكل ما عدا ذلك من الأحكام المنزلة فهو تفسير وتفصيل.

وأمّا الحكيم «شماي» فقد كان الاعتدال بين الزهد والمتاع أكثر مما يطيق، ورُوِي أنه كان يحترف النجارة ليعيش من كسب عمله، وأنّ غيرته على القديم كانت أقوى من إقباله على التجديد والتصرّف في تأويل النصوص. والقول الراجح بين المؤرخين: إنّ معلمي السيد المسيح في صباه كانوا من طائفة الفريسيين [٦].

٢- الصدوقيون

هي الفرقة التي تناظر الفريسيين، أو هما الفرقتان الرئيسيتان بين الفرق اليهودية، وكلتاهما ظهرتا في عهد «هيركانوس»، وكانوا[٧] هم خلفاء الكسديم أو نسّاك العصر المكابي الذين كانوا ينادون بوجوب التزام الشريعة، ولكن وجهة نظرهما كانت مختلفةً: فالفريسيون يرفضون الحرب؛ لأنها تخالف تعاليم التوراة، والصدوقيون يرفضونها؛ لأنهم في هذا الوقت توقعوا هزيمتهم وانكسارهم، وقد خافوا على ممتلكاتهم، وهم يؤيّدون الحرب إذا كان الانتصار متوقعاً، وكان الصدوقيون قد غذوا بالثقافة الهلينستية التي قاربت بينهم وبين اليونان، وهم أيضاً ذوو ثروات وأملاك، فكانوا يخشون ضياعها بسبب الحروب، ولم تكن معارضتهم دينيّةً خالصةً، فكانوا أقل حميةً في مقاومة «هيركانوس»[٨].

والفرقتان معاً تتفقان في أنّ التوراة هي التي يجب أن تكون القاعدة العامة الأساسية لسياسة الدولة، والتي تستمد منها قوانينها داخليّةً وخارجيّةً، ولكنّ الصدوقيين يرون مجاراة الواقع والظروف المحيطة بالدولة، وهي دائمة التطور والتقلب، ولا يمكن أن يقابل هذا التطور الواسع بقانون التوراة المحدود، لهذا أباحوا الاتصال والاندماج بالوثنيين عندما تدعو الظروف، كذلك يرون أنه لا بدّ من مراعاة الأحوال الاقتصادية والسياسية، وميزان الدولة لا يدور إلا على هذا الجانب.

أمّا الفريسيون: فيجدون مخرجاً من ذلك كله بقبولهم الروايات الشفوية وتفسيرات الربانيين، وهي من جانبها تبسّط قوانين التوراة وتُكسبها مرونةً، وهي ليست خارجةً عن التوراة؛ لأنّ الربانيين والأحبار استخلصوها من نصوصها، ولأنها في رأيهم مما أوحي به إلى موسى.

وهذه النظرية جعلتهم ألصق بالتوراة، بينما استباح الصدوقيون الخروج عنها للضرورة، أو لما تدعو إليه الظروف.

والصدوقيون يربطون بين القومية والدين؛ لأنهم يرون أنّ «يهوه» إله بني إسرائيل وحدهم، اختارهم من بين الشعوب، واختار فلسطين وطناً لهم، فالمحافظة على القومية وعلى الأرض مما يمليه الدين، وقادتهم هذه العقيدة القومية إلى نقاء جنسهم، وإلى كون الدين قوميّاً جماعيّاً، ولهذا لا يؤمنون ببعث ولا حساب، بل يعيبون على الفريسيين عقيدتهم في بعث الموتى وبقاء الأرواح حيّةً، وأكّدوا أنها خرافة تصم الفريسيين بالبغاء وضحالة التفكير.

وبهذا نجد أنه منذ ذلك الوقت والفرقتان في فجر حياتهما كان التنافس بينهما شديداً والعداء مستحكماً، ولم يقم بينهما وفاق إلا في عهد سالوم الإسكندري، ثم قوي الصدوقيون بعدها فأثاروا القلاقل من جديد.

وفي عهد المسيح كان الرئيس الأعلى للمجلس «قيافاً» ومعه صهره - والد زوجه - «حنانيا»، وهما معاً من الصدوقيين، وكان تحاملهما عليه شديداً، وتقديمه للمحاكمة على ما ادعاه من أنه ملك اليهود تدل على أنّ القوم جميعاً لم يكونوا على خُلُق ولا دين.

وعندما تولّى «هيرود» على يهودية جرد الطبقة العليا فيها من حقوقها وأنزلها من مكانها، وكان معظمها من الصدوقيين، فأضعف ذلك شأنهم وفلّ قواهم، وهو من ناحية أخرى سالَم الفريسيين وعاملهم بشيء من اللين والرعاية، فنما حزبهم وازداد كثرةً، بقدر ما كان حزب الصدوقيين يذبل ويضمحل، ومع ذلك انقطع جهاد الفريسيين وأخلدوا إلى الاستسلام؛ إذ واجهوا حالةً من اليأس، وأنهم لا يستطيعون عمل شيء لاستنقاذ وطنهم من ربقة الرومان؛ لأنّ هيرود كان من جانبه يعمل على استبقاء الحكم الروماني ليبقى هو حاكماً، ومن هنا اكتفى الفريسيون أن يعملوا للدعوة الدينية وحدها، وقويت حينئذٍ فكرة يوم الخلاص ومجيء المخلّص أو المسيح الموعود الذي يعيد لإسرائيل سيادتها وعظمتها ويعلن وحدانية «يهوه»، ومذهبهم الديني يقوم على انتظار يوم أفضل، وقد أخرجوا في هذا الوقت كثيراً من التفسيرات، وأذاعوا تعاليم التوراة بسعة بين أبناء اليهود، وكان أهم ما أذاعوه في هذا الوقت هو انتظار المسيح الموعود[٩].

وتواترت الروايات بأنهم كانوا يتولّون الكهانة في عهد داود وسليمان، وكانت طائفتهم مهمّةً بمراكز أصحابها؛ لأنهم على الجملة أنصار المحافظة والاستقرار وأصحاب الوجاهة والثراء.

وقد كانوا متشدّدين في إنكار البدع والتفسيرات، متشبّثين بالقديم، يؤيدون سلطان الهيكل والكهّان، ويَقبلون أقدم الكتب التي احتوتها التوراة وهي كتب موسى، ويرفضون ما عداها ولا سيّما المأثورات المنقولة بالسماع.

وتدعوهم المحافظة على النظام القائم إلى مسلك يناقض عقيدتهم فما هو ظاهر من لوازمها؛ فقد كانوا أقرب اليهود إلى الأخذ بالحضارة اليونانية وعادات المعيشة في البيئات الرومانية، ومنهم من كان يدين ببعض المذاهب الفلسفية كمذهب أبيقور كما كان مفهوماً في ذلك العصر، وقد كان الشائع عنه يومئذٍ أنه مذهب اللذة الحسية والمتعة بالترف والنعيم، ولكنّهم في الواقع لا يناقضون سنّتهم وسنّة أمثالهم في كل زمن؛ فإنهم يحافظون على نظام المجتمع لأنهم أصحاب اليد الطولى عليه، ولهذا

يحبّون متاعه ونعيمه، ويوفّقون بينهم وبين أصحاب السلطان السياسي، وقد كانوا يومئذٍ من اليونان والرومان، ويملي لهم في هذه النزعة أنهم يؤمنون بأنّ الكتب اليهودية الأولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر، ولا تعد الصالحين حياةً بعد هذه الحياة، خلافاً للطوائف الأخرى التي تؤمن بالبعث والحساب [١٠].

وقد كانت الحملة على السيد المسيح بقيادة اثنين من كبار الكهنة الصدوقيين، وهما «حنانيا» و«قيافا»، ولم يكن في ذلك عجب؛ لأنّ الصدوقيين جميعاً يحافظون على سلطان الهيكل ويحافظون على النظام القائم، أو لا يستريحون إلى الثورة والانقلاب.

وخلاصة الآداب الصدوقية أنهم حرفيون في مسائل الدين متوسّعون في مسائل المعيشة، وأنهم يعاشرون الأجانب ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم؛ لأنّ أعمالهم ومراكزهم متصلة بذوي السلطان.

٣- الآسينيون

ظهرت هذه الفرقة - في أغلب الأقوال - بالإسكندرية، واقتبست من مدارسها الفلسفية خصوصاً الفلسفة الفيثاغورثية الداعية إلى التقشف وتناسخ الأرواح وتحريم ذبح الحيوانات[١١].

أخذوا عقائدهم وعباداتهم من نظريات الزهّاد ونظمهم التي كانت منتشرة في القرن الأول قبل ميلاد المسيح[١٢]؛ ويقول يوسيفوس عنهم: إن حياة الرجل منهم كانت تطول لأكثر من مائة عام[١٣].

وهي تختلف عن الجماعتين في تفكيرهما الديني القومي أو القومي الديني؛ لأنهم وقفوا حياتهم على العبادة والرهبنة، ودعوا إلى الذلة وقلة الكلام، ومثل هذا المذهب لا ينمّي القومية ولا يدفع الاستعمار إلا من طريق غير مباشر[١٤].

وظهورهم في هذه الفترة لا يمكن أن يفسَّر إلا بأنه رد فعل للضغط والإرهاب الذي فرضه هيرود بن أنتيبيتر.

وكانوا شديدي التأثر بسفر الرؤيا، ويترقبون ظهور المسيح المخلِّص. وكانوا يتقاسمون المنفعة فيما بينهم، ويكتفون من الحياة بما هو ضروري، فيحرّمون على الشخص امتلاك ثوبين أو ادخار طعام، وهو تقشف غاية في الشدة.

وقد امتنعوا من الزواج، وحتّموا الاغتسال اليومي بالماء والتطهر الحسي والمعنوي. وكانوا يأكلون معاً في جماعات ولكن في صمت بالغ، ويشتركون في ممتلكاتهم؛ فليس لديهم ملكية خاصة.

وهم على شاكلة الصدوقيين لا يؤمنون بالتفسيرات الشفوية ولا بالكتب التي بعد

الأسفار الخمسة، ويتمسّكون بحرفية النص التوراتي، ما جعل تمسّكهم بالقانون حرفيّاً شديد الصرامة والعنف، ومن ذلك أنهم يمكثون في بيوتهم يوم السبت بدون حراك؛ عملاً بما جاء في الكتاب المقدّس من قول الرب لموسى: «**اجلسوا كل واحد في مكانه، لا يخرج أحد من مكانه في اليوم السابع**».

ولهم أعمال غامضة يعملونها لاستطلاع الغيب وطرد العفاريت، ويلجأون في قضاء حوائجهم إلى التوسلات والابتهالات، ويخالفون الصدوقيين في نظرتهم إلى القضاء والقدر، بينما حاول الأوّلون أن يوفقوا بين القدر وحرية الإرادة يؤمن هؤلاء بالقدر إيماناً يجعل الإرادة الفردية مشلولةً نهائيّاً، ولا يدع للشخص حرية في شيء، بل يجعل مجهودات الناس لا قيمة لها، وبهذا يختلفون أيضاً عن الفريسيين في مواءمتهم بين الدين والحياة.

وبهذا الانقطاع وشدة النسك مهّدوا للرهبنة المسيحية، ومن الواضح أنّ رهبان المسيحية استفادوا منهم، يلاحظ أنّ صلة الآسينيين باليهودية كانت واهنةً جدّاً.

وهم يسمّون «الآسينيين» نسبةً إلى سيناء، وهي نسبة لا سند قويّاً لها، وأقرب ما يؤخذ به أنهم من كلمة «الآسي»، ويسمّون أيضاً بـ «الآسيين»، وهي بمعنى: الأطباء. وهم أطباء الروح؛ لأنهم كانوا يتعاطون هذا الطب عن طرق الصلوات والأدعية كما يتعاطون العقاقير.

وقد كشفت الحفائر التي أجريت حديثاً في وادي قمران بجانب البحر الميت عن معلومات جديدة عنهم، وكانوا قبل ذلك لا يُعرف عنهم إلا القليل، ومن هذه المعلومات نجد أنهم على صلة قوية بالفلسفات التي كانت شائعةً في الشرق يونانيّةً وغير يونانية؛ فقد وُجد في اللفائف التي عُثر عليها حديث عن الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام، وهي تعبّر عن آمال هذه الجماعة التي اعتبرت نفسها تابعةً لأبناء النور، وفيها أنّ أمير جماعة النور الذي هم مدينون له كان على أيامهم مشغولاً بحرب إله الظلام.

ومن عقائدهم انفصال الروح عن الجسد بعد الموت؛ حيث يبلى الجسد وتبقى الروح خالدةً، وهي تختلط به في هذه الحياة، ولكنها عقب الموت تصعد إلى السماء مع الأرواح الطاهرة إن كانت هي طاهرةً نقيّةً، أو تهبط إلى أسفل إن كانت شقيّةً لتَلقى عقوبتها.

وكما هو الأمر في كثير من الأديان يرتبط التقشف بهذه العقيدة؛ لأنّ العناية بالروح تأتي عن طريق إضعاف الجسد، وتجد صلةً بين هذا المذهب وبين بعض المذاهب الشائعة في الهند وخصوصاً الجينيين، كما تجد شبهاً أقوى بجماعة الروحانيين المسيحيين، وهي في جملتها تقوم على الرهبنة، لكنها تسمح لبعض أفرادها ولأسباب خاصة بالزواج وتعفيه من قيود تنسكها الصارمة.

ويتدرَّج أتباع هذه الفرقة في مراتب متتالية:

أولها درجة التلمذة، وهي تقبل الناشئين الصبيان، فيدرَّبون على مبادئ الجماعة، وأهمها الصدق وعدم الحلف، وإذا أُخذ على واحد منهم كذب فصلته الجماعة.

ثم يلي ذلك درجة «المُقسِمين» أي: الذين يحلفون قَسَم الجماعة، وبعد القَسَم يُمضِي الشخص عاماً في ممارسة رياضاتهم الروحية والعبادة، ثم ينتقل إلى درجة «المريد»، ثم بعدها إلى المرتبة النهائية مرتبة الواصلين، ومدتها عامان أيضاً، ثم يكون عضواً ثابتاً في الجماعة يلبس الثوب الأزرق ويشدّ الزفار ويحمل الفأس، وهو مجرد إشارة إلى العمل الشاق، ولكنهم يزرعون ويصنعون، ويرون التجارة عملاً خبيثاً لا ينجي من الإثم.

وهم يصلّون عند الفجر، ويحافظون على الراحة يوم السبت، والحرب عندهم محرَّمة. وهم يختلفون عن الصدوقيين في إيمانهم بالبعث بعد الموت، ويرون أنّ العبادة الحقة إنما تكون بالإخلاص لله والعدل والرحمة لا بالذبائح والهدايا، متبعين في ذلك نصائح النبي عاموس. وكانوا يتحاشون المدن والأماكن المأهولة، ويؤثِرون الخلوات، حيث لا يشغلهم شاغِل عن التأمل والتفكير. ومع اشتراكهم في كل ما لديهم كانوا يتآخون اثنين اثنين، ويحرصون على ملء فراغهم بالعبادة والقراءة. وأخبارهم مستفيضة واسعة فما كشفته لفائف وادي قمران، ومع هذه السعة لم تستوف كلها بعد، وهي في دوائر المعارف يزيد بعضها على بعض[١٥].

٤- البصريون

جماعة البصريين أو ذوي الرؤيا، أُطلق عليهم هذا الاسم أخذاً من تعلقهم بسفر أستير. ومعلومات المؤرخين عنهم مأخوذة من سفر الرؤيا وإينوخ وبعض الأسفار الأخرى في مجموعة الأبوكريفا، وهي أسفار لم تنل موافقةً إلا في وقت متأخر[١٦].

وهذه الجماعة شديدة التعلق بالحياة المرتقبة لإسرائيل، ويبدو أنّ وجودهم وتكوينهم كالآسينيين كان نتيجةً للضغط السياسي والاستبداد الذي نالهم في عهد «هيرود»، ومن أجله ولوا وجوههم شطر الحياة الأخرى المرتقبة، وهي موكولة للعناية الإلهية التي تعيدهم إلى عدالة شاملة. وارتبطت هذه الفكرة لديهم بنزول المسيح المخلّص الذي يملأ حياة إسرائيل ثم الأرض كلها عدلاً ورحمةً بعد أن ملئت جوراً وقسوةً، ولكن الذي كان يعنيهم هو رد حقوق الإسرائيليين إليهم[١٧].

واتسمت هذه الفرقة بالتسليم المطلق والإيمان بالقضاء والقدر، وأنّ الإنسان لا يستطيع أن يغيّر شيئاً مما كُتب عليه أو له من قبل، وحياته كلها بيد المقادير ولا اختيار له، وعلى المؤمن أن يتذرع بالصبر ويرتقب إنقاذ السماء أو المعجزة الإلهية، حيث يجد المكافأة على صبره، وحيث نزلت العدالة والنجاة على الأرض فإنه يجب ارتقابها من السماء، ولا يجوز اليأس منها.

وهذه الحالة اليائسة السلبية نتج عنها ظهور جماعات أخرى: مثل الجماعة التي عُرفت باسم «الوثقيين»، وجماعة وادي قمران التي كشفت الحفريات الأثرية عنها بجانب البحر الميت منذ أمد غير بعيد.

٥- الدمشقيون ورهبان وادي قمران

الدمشقيون جماعة جاؤوا من دمشق فجدّدوا عهدهم بحياة العزلة والعبادة والتوسل إلى الله كي يكشف عن الشعب الإسرائيلي ما ناله من ظلم الحكام واستبدادهم.

والآخَرون عُرفوا باسم جماعة «وادي قمران»؛ لأنّ مقرهم كان به، وكُشفت آثارهم حديثاً، وقد كان هناك حفريات تجري في هذه البقاع، ثم توقفت سنة ١٩٤٨ م، حيث نشبت الحرب بين إسرائيل والعرب [١٨].

وصدرت عن هذه الجماعات عدة كتب تحمل اسم «لفائف البحر الميت»، وجاء عنها حديث كافٍ في كتاب «موسى ويوحنا المعمدان» من سلسلة كتب رجال الحكمة. والصلة بينهم وبين الدمشقيين قريبة ملحوظة، ونتحدث الآن عن الدمشقيين.

ومعلوماتنا عن نشأة هذه الجماعة جاءت من حفريات أجريت سنة ١٨٩٨ م في معبد عزرا بالقاهرة؛ فقد وُجد بها كتابات ألقت ضوءاً على حياة هذه الجماعة، وأُطلق عليها اسم «جنيزاه» بمعنى: المكان المختفي؛ لأنها وُجدت في مكان مجهول بهذا المعبد، وهي مخطوطات كثيرة بعضها مكتمل وبعضها ناقص، وقام بترجمتها العالم الكبير الدكتور س. سخيكتر، وتم نشرها سنة ١٨٩٨ م، وهي الآن ضِمن مجَموعة من الأثريات في جامعة كمبردج، ومن محتوياتها كتابات سُمِّيَت «مستندات زادوكايت»، وقد تم نشرها لأول مرة سنة ١٩٠٢ م، وقد حمل القوم على حفظها والعناية بها ما لها لديهم من قداسة.

وأمّا عن جماعة وادي قمران: فإنه من قبيل المصادفة عُثر بين لفائف البحر الميت في ربيع سنة ١٩٤٧ م على مخطوطات وضّحت حياتهم، وهي لفائف كانت مودعةً في أوانٍ فخارية لتحميها من التآكل.

وكانت هذه الجماعات منقطعةً للرهبنة والعبادة، وتنتقل من مكان إلى آخَر، فإذا انتقلوا تركوا آنيتهم مغسولةً نظيفةً، وتركوا أيضاً ملابسهم وأدواتهم ليستعملها الذين يأتون بعدهم، وهم يجدون في الأماكن التي سينتقلون إليها ملابس وأدوات أيضاً، وملابس بيضاء خفيفةً.

وصلواتهم وأدعيتهم في أوقات منتظمة، وليس لهم رئيس؛ فهم جميعاً متساوون، وأمرهم شورى بينهم، ونظمهم معروفة مقررة.

وهاتان الطائفتان - الدمشقيون وأصحاب وادي قمران - كانت لهم تعاليم أخلاقية صارمة يحرصون عليها، وكانوا معاً يعتقدون أنهم يعيشون في نهاية الزمن، وأنّ

مجيء المنقذ المعلم قد أظل أوانه، وهذا المعلِّم ليس هو المسيح ولكنه ممهِّد لمجيئه، والمسيح يأتي بعده فيخلِّص هؤلاء الصابرين الطاهرين بسبب اعتزالهم الدنيا وبُعدهم عن أدناسها، ويُنزل العقوبة على الآخَرين أيضاً.

ولا يزال تاريخ هاتين الطائفتين محل بحث وجدل، ولكن ما يتفق عليه الباحثون أنهما كانتا منفعلتيْن شديدتَي التأثّر بأسفار الأبوكريفا بالرؤيا واليوبيل وأبنوخ أكثر من غيرها، وأنها كانت مصدر تعاليمهما وعقائدهما.

وكشفت لفائف البحر الميت ـ أيضاً ـ عما كان أصحاب وادي قمران يؤمنون به من التنازع الدائم بين النور والظلام وبين أبنائهما، كما ينقل ذلك عن الآسينيين، ويدل هذا على أنّ الجميع لم يكونوا بمعزل عن تعاليم المزدكية والمانوية، ولكن ما وُجد لا يتعارض مع ما في الأسفار السابقة.

والذي يؤخذ على هاتين الجماعتين وعلى الآسينيين أنهم جميعاً يعارضون في مسلكهم عقائد اليهودية؛ فاليهود يؤمنون أنهم شعب الله وأنّ الله اختارهم للسيادة على الشعوب، وهم لذلك يعلمون ليتغلبوا على الشعوب الأخرى، وأنهم سيمتلكون الأرض كلها؛ حيث يكون الأمميون أتباعاً لهم، وحياتهم المرتقبة هي هذه السيادة، وبعض فرقهم ـ كما سبق ـ لا يؤمنون بالبعث بعد الموت أصلاً، أمّا هؤلاء فدعوا إلى عزلة تامة وبُعد عن أشكال الحرب والقتال، ثم حرّموا الزواج، فعملوا على انقراض جنسهم كما عملوا على ترك الحرب.

هذه أهم الفِرَق الدينية اليهودية، وكما هو بادٍ في حديثهم أكثرهم على صلة بالسياسة اليهودية، حتى الفرقتان الأخيرتان كانتا تترقبان مجيء المسيح وعودة المملكة الإسرائيلية.

٦- الحماسيون

اكتسبت هذه الجماعة اسمها مما كان بادياً عليها من الغيرة الشديدة على تعاليمها، وأساس أفكارهم هو معارضة القانون الروماني، والحصول على مزيد وسعة من الحكم الذاتي الذي حصلوا عليه، ودعوا إلى العنف والشدة لتنفيذ مبادئهم، فسُمّوا «الحماسيين».

كان ظهور هذه الجماعة في العهد الهيرودي، وكان التذمّر من الرومان وأتباعهم يسود الفِرَق اليهودية جميعاً، وإنْ كانت وطأته أقلّ عند الصدوقيين، وكان النبي حزقيا قائد حركة المتمرّدين ومغذيها بخطبه النارية وحماسه الدافق، ولكنه لم ينظّم حزباً ذا أشخاص معينين، وقد نفاه أول عهده ـ كما ذكرنا قبل ـ لخشيته آثار حماسه، ثم تلاه ابنه يهوذا، ويسمى «يهوذا الجليلي» نسبةً إلى الإقليم الذي كان به، وهو الذي نظّم الحزب ووضع له مبادئه التي يجري عليها، ويسمّى الحزب لذلك أيضاً

باسم «الجليليين»، و«حزب يهوذا الجليلي»، ومن أهم مبادئه ألا يثنيهم شيء عن مأربهم الذي له قداسته وصفته الدينية.

ثم حدث بعد ذلك أن استولت روما على يهودية توسعةً لممتلكاتها في سوريا، فأثار هذا الاستيلاء حماساً وغيظاً في نفوس اليهود، ثم مات هيرود الكبير سنة ٤ م، أو على الأصح عام ميلاد المسيح؛ هذا لأنه من المعروف أنه عليه السلام وُلد سنة ٤ أو ٦ م، وتسابق أبناؤه الثلاثة على استيلاء عرشه، وتدخلت روما لا لشيء إلا لتقرر أنّ يهودية ملحقة بسوريا.

ونظراً لاعتماد الحماسيين على التوراة في حماسهم وحركتهم الثائرة ظهروا بمظهر المحامي المدافع عنها، وكانت ذريعةً ناجحةً لإثارة التمرّد ضد الرومان أعدائها وأعداء الله وأعداء شعبه المختار، وكانوا يرون أنه من الإثم الكبير أن يعتبر إسرائيلي بسيادة روما على يهودية.

وجاء التعداد أو الإحصاء العامّ فلم يرض عنه اليهود؛ لأنهم رأوا فيه تمهيداً لفرض السيطرة الرومانية عليهم وحصرهم عباداً للقيصر أو بين عباده، وهذا يخالف الديانة اليهودية التي لا ترى عبادةً ولا سيطرةً لأحد إلا لـ «يهوه»، وقالوا: إنّ «يهوه» إذا عُبد غيره أو خَضع شعبه لأحد غير المسوحين لقيادة شعبه غضب على شعبه المختار وسلّط عليه أمماً تذله وتهينه، وقامت لذلك ثورة جامحة أريق فيها كثير من الدماء.

كانت حركة هؤلاء رد فعل إيجابيّاً للحكم السيئ، ولم يكن استسلاماً على نحو ما فعل الآسينيون والدمشقيون وجماعة وادي قمران، وهم الذين ثبّتوا في أذهان الناس أنّ فلسطين أرض اختارها الله لشعبه، فهي أرض الله، والاعتداء عليها إثم، والرضا بوضعها في يد غير يهودية كفر بشريعة التوراة.

ومن المحتمل أن يكون أصحاب قمران من هؤلاء جنح بهم اليأس إلى العزلة، ومن المحتمل أن يكون الحماسيون من الآسينيين تماثلوا في منهجهم القومي.

وكانت العلاقة بين الحماسيين والصدوقيين سيئةً أدنى إلى العداء، وهذا أمر طبيعي؛ لأنّ الصدوقيين - على ما سبق - كانوا يرون مجاراة الرومان ويحرصون على سلامة صلتهم بهم محافظةً على أموالهم، فبينما يرى الحماسيون جهاد الرومان أمراً مقدساً، يراه الصدوقيون مغامرةً واندفاعاً لا داعي له.

وعلى أيّ حال.. أُخمدت الثورة، ولم تعد ثورة الحماسيين على البلاد بشيء سوى الخسائر.

٧- السامريون

هم سكّان السامرة في إسرائيل الشمالية، وهم مزيج من الإسرائيليين والآشوريين،

ترجع بدايتهم إلى السبي البابلي الأول؛ فقد نقل نبوخذ نصّر سكان هذا الإقليم ولم يبق إلا الحثالات، ونقل إلى البلاد أفواجاً مختلطةً من سقي النهرين، فاختلطوا وهؤلاء بالمصاهرة، ونشأ منهم نسل مهجن، وكذلك اختلطت معهم الديانات، فلمّا رجع زرو إلى بابل (المولود في بابل) ومعه مئات الكهّان وجدوا هؤلاء القوم ليسوا على عبادة «يهوه»، فأنكروا عبادتهم وأنكروهم، وقالوا: هم وثنيون وليسوا يهوداً.

ولمّا شرعوا في إعادة بناء الهيكل لم يسمحوا لهؤلاء السامريين أن يشاركوهم فيه، ولإصرار هؤلاء على يهوديتهم بنوا لهم هيكلاً في جرزيم، وقام التنافس والعداء بين الهيكلين وأتباعهما، فكان السامريون يدنّسون بيت المقدس ليصرفوا الناس عن العبادة فيه وليوجهوهم إلى هيكل جرزيم، وظل هذا الهيكل قائماً نحو مائتي عام، وأخيراً هدمه كهّان بيت المقدس قبل ميلاد السيد المسيح بنحو مائة عام، ثم أعيد بناؤه، وبقي حتى القرن الخامس الميلادي؛ إذ هدمه الرومان إثر ثورة لهم، كذلك هدموا جرزيم وبنى القائد الروماني «فاسبسيان» على أنقاضها المدينة الجديدة «نيوبوليس» نابلس.

والسامريون لم ينقرضوا إلى الآن، ولهم تقاليدهم الدينية الخاصة، فلا يؤمنون من التوراة إلا بأسفار موسى، وفي نسختهم المطبوعة الآن بعض اختلافات عن النسخة المتداولة، ونسختهم المقدسة مكتوبة بلغتهم، وعاصمتهم المقدسة موطن هيكلهم.

وكان العداء بين الطائفتين شديداً، وقد اعتبرهم اليهود أنجاساً، فلا يمسّونهم ولا يأكلون طعامهم، وقد عجبت فتاة سامرية أن يطلب السيد المسيح منها ماءً يشربه؛ لأنه على عكس اليهود لم يرها نجسة.

٨- النذريون

ولا يستوفى الكلام على القوى الدينية التي كان لها عمل محسوس في موطن السيد المسيح قبيل ميلاده عليه السلام بغير الإشارة إلى طائفة النذريين أو المنذورين الذين وهبوا أنفسهم أو وهبهم أهلوهم لحياة القداسة وخدمة الله والتبشير باليوم الموعود: يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب.

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفةً تجمعها الوحدة التي تجمع بين أصحاب النِّحَل والمراسم الاجتماعية، ولكنهم كانوا آحاداً متفرقين يَنذر كل منهم نفسه أو يَنذره أهله على حدة، ولا ينتسبون إلى جماعة واحدة غير جماعة الأمة بأسرها.

والكلمة باللغة العربية ترجع إلى مادة تفيد معنى التجنيد، واستعيرت ـ على ما يظهر ـ للجهاد في سبيل الدين؛ يقال: «نذر الجيش الرجل» جعله نذيرةً أي: طليعةً، وربما كان من عمله أن يُنذِر قومَه بالعدوّ ويبعدهم عن المخاطر والمفاجآت. ولا شك في أنّ المادة تدور حول هذا المعنى في العبرية مع اختلاف الحروف والأوزان.

ولا يُشترط في النذري أو المنذور أن يهجر العالَم ويعتزل الناسَ في الصوامع، ولكنه يراض على حياة التنطس، فلا يجوز له شرب الخمر، ولا أن يدنّس جسده بملامسة الموتى أو الأجسام المحرّمة، وعليه أن يرسل شَعره ولا يحلقه قبل وفاء نذره إن كان منذوراً لأجَل مسمّى.

وقد يُنذَر الطفل قبل مولده ويمتد نذره طول حياته، ويقال: عن المنذور إنه بمثابة النبي في سن الفتوة؛ قال النبي عاموس بلسان «يهوه» إله بني إسرائيل: «وأقمت من بينكم أنبياء ومن فتيانكم نذيرين، لكنكم سقيتم النذيرين خمراً وأوصيتم الأنبياء أن يدعوا النبوءة»، والنبوءة هنا بمعنى: الإنذار بما سيكون.

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد السيد المسيح؛ لأنه وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبري، وهو الموعد الذي كان منتظراً ببعثة المسيح الموعود؛ لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة..

ومنهم مَن كان يقول: إنّ اليوم الإلهي كألف سنة كما جاء في المزامير، وأنّ عمر الدنيا أسبوع إلهي: تنقضي ستة أيام منه في العناء والشقاء، ويأتي اليوم السابع بعد ذلك كما يأتي يوم السبت للراحة والسكينة، فيدوم ألف سنة كاملة هي فترة الخير والسلام قبل فَناء العالَم، ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم «الألفية» ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام.

فالذين قدّروا أنّ القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض إلى نهاية الألف السادسة، ويومئذٍ تسود دولة المسيح الموعود، ولكنهم كانوا كغيرهم في انتظار رسول من عند الله كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة، وكانت بداية الألف الخامسة موعداً منظوراً أو منذوراً يكثر فيه النذيرون، لعلهم يُحسبون من جند الخلاص، أو لعل واحداً منهم يسعده القدر فيُكتب الخلاص على يديه.

والمهم في أمر النذيرين بالنسبة إلى السيد المسيح أنّ النبي يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) كان عَلَماً من أعلامهم المعدودين، وكان السيد المسيح يتعمّد على يديه أو يأخذ العهد عليه، وأنّ بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الأمر بين النذيري والناصري، وهما في اللفظ العبري متقاربان.

ومن هؤلاء المؤرخين مَن يزعم أنه لم يكن من الناصرة، بل يزعم أنّ الناصرة لم يكن لها وجود؛ لأنها لم تُذكر قط في كُتُب العهد القديم، ولكنّ الأرجح في اعتقادنا أنّ الناصرة نفسها كانت تسمى «نذيرة»، بمعنى: الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التي فتحها العبريون قديماً، وأنها كانت مرقباً صالحاً للاستطلاع؛ لأنّ

التلول التي تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم «مرج ابن عمير»، وبهذا تزول الصعوبة التي اعترضت المفسّرين الغربيين على الخصوص ولا سيما الناظرين في اللغة اليونانية لغة الأناجيل، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف اللساني، فلا يفرّقوا بين النسبة إلى المنذورين والنسبة إلى النذيرة، وبخاصة إذا كان اسم البلدة قد عرض له التصحيف على ألسنة العبريين والغرباء على طول الزمان، فنطقوه تارةً بالصاد وتارةً بالسين.

وليس النذيرون طائفةً واحدةً كما أسلفنا، ولكنهم ينتمون إلى كل مذهب يوافق حمية الشباب، وهذا الذي جعلهم قوّةً ذات بال في عصر الميلاد خاصة؛ لأنهم جميعاً فتيان معمورة قلوبهم بالأمل، معقودة نياتهم على الإصلاح، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة إلى المسيح الموعود، ويترقبون ظهوره للترحيب به والإصغاء إليه، ولا تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود.

الشتات والفكر اليهودي

وقد أثّر الشتات على الفكر والثقافة اليهودية؛ ولذلك صارت الشريعة الرابطة التي لا غنى عنها والتي تؤلف بين المشتتين في الأرض [١٩].

والشريعة هي التي حاولوا الارتباط بها والتواصل فيما بينهم للمزج بين الأرض والتوراة والشعب؛ وهنا ارتبط الدين بفكر السياسة وخرجوا بفكرة الدولة التي رفضتها بعض الفرق ولكن الذي انتصر هو الفكر القومي.

الهوامش:

(١) – عبد الجليل شلبي، اليهود واليهودية، كتاب اليوم، القاهرة ١٩٩٧، ص ١١٩.

(٢) – المصدر نفسه.

(٣) – المصدر نفسه.

(٤) – عباس العقاد، عبقرية المسيح، كتاب اليوم، القاهرة ١٩٥٣، ص ٢٤.

(٥) – واليهودية, مصدر سابق، ص ١٢٨.

(٦) – م.ن.

(٧) – ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، منشورات جامعة الدول العربية، ج١١ ص١٧٣.

(٨) – المصدر نفسه.

(٩) – العقاد، مصدر سابق. ص ٣٢.

(١٠) – اليهود، مصدر سابق. ص ٣٨.

(١١) – ديوارنت، مصدر سابق، ص ١٧٤.

(١٢) – إميل بريهيه، الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الأسكندري، المطبعة الأميرية، مصر ١٩٤٤، ص ٨٣.

(١٣) – ديورانت، مصدر سابق، ص ١٧٤.

(١٤) – واليهودية، مصدر سابق، ص ٣٩.

(١٥) – المصدر نفسه.

(١٦) –المصدر نفسه.

(١٧) – العقاد، ص ٣٥.

(١٨) – ديورانت، مصدر سابق، ص ١٧٨.

(١٩) – المصدر نفسه.